مكتبة الهمّة

الدولة الإسلامية

الانتصار لحزب الله الموحِّدين

والرد على المجادل عن المشركين

للشيـخ
عبد اللَّه بن عبد الرحمن
أبـا بطيـن (رحمه اللَّه)

المتوفى
سنة ١٢٨٢هـ

الانتصار لحزب الله الموحدين
والرد على المجادل عن المشركين

للشيخ

عبد الله أبا بطين (رحمه الله)

المتوفى سنة ١٢٨٢ هـ

مكتبة الهمة

مكتبة
الهمّة

الدّولة الإسلاميّة
خلافةٌ على مِنهاجِ النّبوّة

الطبعة الأولى
مطابع الدّولة الإسلاميّة
صفر ١٤٣٧هـ

مقدِّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فبعد أنْ يسَّر اللهُ تعالى لنا تحقيق وطباعة ونشر رسالة (مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد) للشيخ محمد بن عبد الوهَّاب، ورسالتَي (الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك، وأوثق عُرى الإيمان) للشيخ سليمان بن عبد الله؛ اخترنا رسالة (**الانتصارُ لحزب الله الموحِّدين، والردُّ على المجادل عن المشركين**) للشيخ عبد الله أبا بُطَيْن[1] لتكونَ الرِّسالةَ الثالثة مِنْ سلسلة رسائل التوحيد لأئمة الدَّعوة النَّجدية (عليهم رحمةُ الله).

ورسالةُ الانتصار التي بين أيدينا مِنَ الرَّسائل المهمَّة في توحيد الأُلوهية، دَبَّجَها صاحبُها (قدَّس الله روحه) بمقدِّمةٍ وافية، بيَّن فيها معنى العبادة والإله والطاغوت، وبالتالي معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وحقيقتِها، ثم أتْبَعَ المقدِّمةَ بستَّةِ فصول، ردَّ في الأول منها على مَنْ زعمَ أنَّ دعاءَ الأموات والاستغاثة بهم ليس بشرك، ونبَّه في الفصل الثاني لأهمية معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من الأسماء، وخاصةً معرفة

(١) هو الشيخ العلَّامة أبو عبد الرَّحمن عبد الله بن عبد الرَّحمن بن عبد العزيز أبا بُطَيْن العائذي النَّجدي، المولود سنة ١١٩٤ هـ في بلدة روضة سدير الواقعة شمال غرب مدينة الرِّياض في هضبة نجد في الجزيرة العربية، والمتوفى سنة ١٢٨٢ هـ (رحمه الله وأسكنه فسيح جنَّاته).

حقيقة اسم الشرك وحدوده، وعَقَدَ الفصلَ الثالث لإثباتِ أنَّ الدعاءَ - سواء كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة - عبادةٌ لا ينبغي أنْ تُصرفَ لغير الله جلَّ وعلا.

أما الفصل الرابع -الذي هو أطول الفصول - فقد استهلَّ الكاتبُ الحديثَ فيه بردِّ شبهةِ مَنْ زعمَ أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) لا يُكَفِّرُ مرتكبَ الشرك الأكبر إنْ كان جاهلاً أو متأوِّلاً أو مجتهداً أو مقلِّداً بإطْلَاق، ثمَّ بيَّن شِركَ مَنْ جعلوا بينهم وبين الله وسائطَ يجتلبونَ بهم المنافع ويدفعون بهم المضار، فحَكَمَ بكفرِ مَنْ دعا هؤلاء الشفعاء مِنْ دون الله أو ذبح لهم أو نذر لهم أو استغاث بهم... وشدَّد النَّكير على مَنْ لم يكفِّرهم وجادلَ عنهم وسهَّل ما ارتكبوه وسوَّغه لهم بالشُّبهات.

وفي الفصل الذي يليه (الخامس) فرَّق بينَ كراماتِ الأولياء ودَجَلِ الصوفية، ثم ختمَ رسالتَه بفصلٍ سادس، وجَّه فيه نصيحةً قيِّمةً، دعا فيها للتمسُّك بالكتاب والسنَّة وما عليه سلفُ الأمَّة، ولزومِ الجماعة، ونبذِ التعصُّب والكِبْر، ثم واسى الغرباءَ على غربتهم في آخر الزَّمان.

واللهَ تعالى نسألُ أنْ تعمَّ الفائدةُ بهذه الرِّسالة، وأنْ يجعلَها ذُخراً لكاتبها يوم العرض عليه سبحانه، وأنْ يُثبتَ أجرَ مَنْ شاركَ في نشرها.

مكتبة الهمّة

الدَّولة الإسلاميَّة

صفر ١٤٣٧هـ

قال الشيخ عبد الله أبا بطين (رحمه الله):

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وسلَّم تسليماً كثيرا.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، فلمَّا أعلَمنا الله سبحانه أنَّه إنما خلقَنا لعبادته؛ وجبَ علينا الاعتناء بما خلقَنا له علماً وعملاً.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، وقال تعالى: {وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا}، قال ابنُ عباس (رضي الله عنهما): كلُّ ما في القرآن من الأمر بالعبادة، فالمراد به التوحيد.

وبذلكَ أرسلَ الله جميع الرسل، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}،

وكلُّ رسولٍ أوَّلُ ما يقرَعُ به أسماعَ قومه أنْ يقول: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}، قال مالك وغيرُ واحد مِنَ المفسرين: كلُّ ما عُبدَ مِنْ دون الله فهو طاغوت، وقال عمر بن الخطاب وابنُ عباس (رضي الله عنهم): الطاغوت: الشيطان.

قال ابنُ كثير: قوله في الطاغوت إنه الشيطان قوي جداً، فإنه يشمل كل شرٍّ كان عليه أهل الجاهلية، مِنْ عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.. ذَكَرَهُ على قوله: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِالله} الآية.

وقال النووي: قال الليث وأبو عبيدة والكسائي وجماهير أهل اللغة: الطاغوت: كل ما عُبد مِنْ دون الله.

وقال الجوهري: الطاغوت: الكاهن والشيطان، وكل رأس في الضلالة.

وما تضمَّنته هذه الآيات ونحوها مِنْ آي القرآن –مِنَ الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة غيره– هو معنى لا إله إلا الله.

قال ابنُ جرير في الكلام على معنى لفظ الجلالة، قال: ورُويَ لنا عن ابن عباس قال: أي هو ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

وقال الجوهري في الصحاح: أَلَه –بالفتح– إلاهة، أي: عَبَدَ عِبَادَة.. قال: ومنه قولنا (الله)، وأصله إلاه على وزن فِعال بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه بمعنى معبود، قال: والتأليه: التعبيد، والتألُّه التنسُّك والتعبُّد، قال رُؤْبَة: سَبَّحْنَ واسترجَعْنَ مِنْ تألُّـهي. انتهى.

وقال في القاموس: أله إلاهة وألوهة وألوهية: عبد عبادة، ومنه لفظ الجلالة، قال: وأصله إله –على وزن فِعال– بمعنى مألوه، وكلُّ ما اتُّخذ معبوداً إلهٌ عند متَّخِذِه، قال: والتأله: التنسك والتعبد.

وفي المصباح: أَلَه –من باب تَعَبَ– إلهة، بمعنى: عبد عبادة، وتألَّه تعبَّد، والإله: المعبود، وهو الله سبحانه، استعاره المشركون لِـما عبدوه من دون الله.. انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله): الإله هو المعبود المطاع، فهو إله بمعنى مألوه.

وقال ابنُ القيم: الإله هو الَّذي تألَـهُهُ القلوبُ محبةً وإجلالاً وإنابةً وإكراماً وتعظيماً وخوفاً ورجاءً وتوكلا.

وقال ابنُ رجب: الإله: هو الَّذي يُطاع فلا يُعصى هيبةً له وإجلالاً ومحبةً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك إلا لله، فمن أشرك مخلوقاً في شيءٍ مِنْ هذه الأمور التي هي مِنْ خصائص الإلهية؛ كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، ونقصاً في

توحيده، وكان فيه مِنْ عبودية المخلوق بحسب ما فيه مِنْ ذلك، وهذا كله مِنْ فروع الشرك.

وقال ابنُ هُبَيْرَة في الإفصاح: قوله: شهادة أنْ لا إله إلا الله تقتضي أنْ يكون الشاهد عالماً بأنَّ لا إله إلا الله، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ}، وينبغي أنْ يكون الناطق بها شاهداً فيها، فقد قال الله تعالى -ما أوضح به- أنَّ الشاهد بالحق إذا لم يكن عالماً بما شهد به فإنه غير بالغ مِنَ الصدق به مع مَنْ شهد لك بما يعلمه في قوله تعالى: {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، قال: واسم الله: مرتفع بعد إلا مِنْ حيث أنه الواجب له الإلهية فلا يستحقها غيرُه سبحانه.

قال: واقتضى الإقرار بها أنْ تعلم أنَّ كلَّ ما فيه أمارة للحدث فإنه لا يكون إلهاً، فإذا قلتَ: لا إله إلا الله اشتمل نطقُك هذا على أنَّ ما سوى الله ليس بإله، فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده.

قال: وجملة الفائدة في ذلك: أنْ تعلم أنَّ هذه الكلمة هي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لـمَّا نفيتَ الإلهية وأثبتَّ الإيجاب لله كنت مـمَّن كَفَرَ بالطاغوت وآمن بالله. انتهى.

وقال أبو عبد الله القرطبي في التفسير: لا إله إلا هو، أي: لا معبود إلا هو.

وقال الزَّمَـخْشَري: الإله مِنْ أسماء الأجناس، كالرجل والفرس، اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق.

وقال البقاعي: لا إله إلا الله، أي: انتفى انتفاءً عظيماً أنْ يكون معبوداً بحق غير الملك الأعظم؛ فإنَّ هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلَّا فهو جهل صرف. انتهى.

وجميع المفسرين يفسِّرون الإله بـ(المعبود)، والمشركون يعرفون ذلك؛ لأنهم أهل اللسان، فلما طَلَبَ منهم النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) أنْ يقولوا: لا إله إلا الله؛ قالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، وهم يعترفون بأنَّ الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، ربُّ كل شيء ومليكه، كما أخبر الله عنهم بذلك في مواضع كثيرة من كتابه.

والله سبحانه فرض على عباده معرفة معنى لا إله إلا الله، وأنْ يعلموا أنَّ لا إله إلا هو، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ}، وترجم البخاري على الآية فقال: (باب العلم قبل القول والعمل)؛ إشارةً إلى أنَّ العلم بمعنى لا إله إلا الله أوَّلُ واجب، ثم بعد ذلك القول والعمل.

وقال الله تعالى: {هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، لم يقل: ليقولوا إنما هو إله واحد، وقال: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ

فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}، أي: واعلموا أنْ لا إله إلا هو، وقال تعالى: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، قال المفسرون: إلا مَنْ شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم.

وقد قال النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): «مَنْ مات وهو يعلم أنْ لا إله إلا الله؛ دخل الجنة»[1].

واستدلَّ العلماء بهذه الآيات ونحوها على أنَّ أول واجب على الإنسان: معرفة الله.

ودلَّت هذه الآيات: على أنَّ آكدَ الفرائضِ العلمُ بمعنى لا إله إلا الله، وأنَّ أعظم الجهل نقص العلم بمعناها؛ إذ كان معرفة معناها آكد الواجبات؛ فالجهل بذلك أعظم الجهل وأقبحه.

ومِنَ العجب أنَّ بعض الناس إذا سمع مَنْ يتكلَّم في معنى هذه الكلمة نفياً وإثباتاً عابَ ذلك وقال: لسنا مكلَّفين بالناس والقول فيهم!

فيُقال له: بل أنت مكلَّفٌ بمعرفة التوحيد الَّذي خلق الله الجنَّ والإنس لأجله وأرسل جميع الرسل يدعون إليه، ومعرفة ضده، وهو الشرك الَّذي لا يُغفر، ولا عُذرَ لمكلَّفٍ في الجهل بذلك، ولا يجوز فيه

---

(١) رواه مسلم.

التقليد؛ لأنه أصلُ الأصول، فمنْ لم يعرف المعروف ويُنكر المنكر فهو هالك، لا سيما أعظم المعروف وهو (التوحيد) وأكبر المنكرات وهو (الشرك).

قال رجلٌ لعبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): هلكتُ إنْ لم آمر بالمعروف وأنهَ عن المنكر! فقال ابنُ مسعود: هلكتَ إنْ لم يعرف قلبُك المعروف ويُنكر المنكر.

وبمعرفة التوحيد يُعرفُ أهلُه؛ كما قال علي (رضي الله عنه): "اعرفِ الحقَّ تعرفْ أهلَه".

وأما الإقرار بتوحيد الربوبية، وهو أنَّ الله سبحانه خالقُ كلِّ شيء ومليكه ومدبره؛ فهذا يقرُّ به المسلمُ والكافرُ، ولا بدَّ منه، لكنْ لا يصير به الإنسانُ مسلماً حتى يأتي بتوحيد الإلهية الَّذي دعتْ إليه الرُّسل وأبى عن الإقرار به المشركون وبه يتميز المسلم عن المشرك وأهل الجنة مِنْ أهل النار.

وقد أخبر سبحانه في مواضع مِنْ كتابه عن المشركين أنهم يُقرُّون بتوحيد الربوبية، ويحتجُّ عليهم سبحانه بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إشراكهم في توحيد الإلهية، قال سبحانه: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَيُخْرِجُ الْـمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ}.

قال البكري الشافعي في تفسيره على هذه الآية: إنْ قلتَ: إذا أقروا بذلك فكيف عبدوا الأصنام؟ قلتُ: كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرُّب إليه، لكنْ في طرق مختلفة:

ففرقةٌ قالت: ليس لنا أهلية عبادة الله بلا واسطة، لعظمتها؛ فعبدناها لتقرِّبنا إليه زلفى.

وفرقةٌ قالت: الملائكة ذوو وجاهة عند الله فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة لتقرِّبنا إلى الله زلفى.

وفرقةٌ قالت: جعلنا الأصنامَ قِبلةً لنا في العبادة؛ كما أنَّ الكعبة قبلةٌ في عبادته.

وفرقةٌ اعتقدت: أنَّ لكل صنم شيطاناً موكلاً بأمر الله، فمَنْ عَبَدَ الصنم حقَّ عبادته قضى الشيطانُ حوائجَه بأمر الله، وإلَّا أصابه شيطانُه بنكبةٍ بأمر الله. انتهى.

وقال ابنُ كثير –عند قوله: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى}–: إنما يحملهم على عبادتهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في

نصرهم وما ينوبهم مِنْ أمر الدنيا.. قال قَتادة والسدي ومالك –عن زيد بن أسلم وابن زيد–: {إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}: أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلةً.

وقال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} ، وقال: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}.

قال ابن عباس وغيرُه: إذا سألتَهم مَنْ خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم يعبدون معه غيره!

ففسَّروا الإيمان في هذه الآية بإقرارهم بتوحيد الربوبية والشرك بعبادتهم غير الله، وهو توحيد الألوهية.

فلمَّا تقرَّر معنى: الإله وأنه المعبود؛ تعيَّن علينا معرفة حقيقة العبادة وحدِّها.

فعرَّفها بعضُهم بأنها: ما أُمرَ به شرعاً مِنْ غير اطِّرادٍ عُرفي ولا اقتضاءٍ عقلي.

وقال بعضُهم: هي كمالُ الحب مع كمال الخضوع، وهذا يستلزم طاعة المحبوب والانقياد له.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالصَّلاة والزكاة

والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرِّ الوالدين وصلة الأرحام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء والذكر وقراءة القرآن... وأمثال ذلك من العبادة، فالدِّينُ كله داخل في العبادة.

فإذا علم الإنسانُ وتحقَّق معنى الإله وأنه المعبود، وعرفَ حقيقةَ العبادة؛ تبيَّن له أنَّ مَنْ جعل شيئاً مِنْ العبادة لغير الله فقد عبدَه واتخذه إلهاً وإنْ فرَّ مِنْ تسميته معبوداً أو إلهاً وسمَّى ذلك توسُّلاً وتشَفُّعاً أو التجاءً ونحو ذلك.

فالمشركُ مشركٌ شاءَ أم أبى؛ كما أنَّ المُرَابي مرابٍ شاء أم أبى، وإنْ لم يسمِّ ما فعله رباً، وشاربُ الخمر شاربٌ للخمر وإنْ سمَّاها بغير اسمها، وفي الحديث عن النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): «يأتي ناسٌ مِنْ أُمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها»[1].

فتغيير الاسم لا يغيِّر حقيقةَ المسمَّى ولا يزيل حكمه، كتسمية البوادي سوالفَهم الباطلة حقّاً، وتسمية الظَّلَمَة ما يأخذونه مِنَ الناس بغير اسمه.

ولـمَّا سمع عَدِي بن حاتم –وهو نصراني– قول الله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ}، قال للنَّبيِّ (صلَّى الله عليه

(١) رواه أحمد وأبو داود وابنُ ماجة وغيرهم.

وسلَّم): إنا لسنا نعبدهم! فقال (صلَّى الله عليه وسلَّم): «أليس يُحرِّمونَ ما أحلَّ اللهُ فتحرِّمونه ويحلُّون ما حرَّم اللهُ فتحلُّونه؟» قال: قلتُ: بلى! قال: «فتلك عبادتُهم»[1].

فعدي (رضي الله عنه) ما كان يحسَبُ أنَّ موافقتهم فيما ذكر عبادةٌ منهم لهم، فأخبره (صلَّى الله عليه وسلَّم) أنَّ ذلك عبادة منهم لهم مع أنَّهم لا يعتقدونه عبادة لهم؛ وكذلك ما يفعله عبَّاد القبور مِنْ دعاء أصحابها وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرُّب إليهم بالذبائح والنُّذور عبادةٌ منهم للمقبورينَ وإنْ كانوا لا يسمُّونه ولا يعتقدونه عبادة.

وكذلك الَّذين قالوا للنَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): "اجعلْ لنا ذاتَ أنواط" ما كانوا يظنُّون أنَّ قولهم اجعل لنا ذات أنواط كقول بني إسرائيل: "اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة"، ولم يظنوا أنَّ هذا مِنَ التألُّه لغير الله الَّذي تنفيه لا إله إلا الله؛ لأنهم يقولون لا إله إلا الله ويعرفون معناها لأنهم العرب، لكنْ خفيتْ عليهم هذه المسألة؛ لحداثة عهدهم بالكفر، حتى قال النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): «الله أكبر! إنها السنن! قلتم –

(١) رواه الترمذي والبيهقي والطبراني.

والَّذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون، لَتركبُنَّ سَنن مَنْ كان قبلكم»[1].

فإن قيل: فالنَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) لم يكفِّرهم بذلك!

قلنا: هذا يدلُّ على أنَّ مَنْ تكلَّم بكلمةِ كفرٍ جاهلاً بمعناها ثم نُـبِّه فتنبَّه؛ أنه لا يكفر، ولا شكَّ أنَّ هؤلاء لو اتخذوا ذات أنواط بعد إنكار النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) عليهم لَكفروا.

وقال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، الضمير في قوله (جَعَلَهَا) راجعٌ لقوله: (إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي).

قال مجاهد وقتادة: هي شهادة أنْ لا إله إلا الله، فلا يزالُ في ذرية إبراهيم من يعبدُ الله وحده.

ففي الآية والحديثينِ قبلها بيانٌ لمعنى لا إله إلا الله، وأنَّ المراد منها البراءة مِنَ التألُّه والعبادة لغير الله وإفراده سبحانه بالعبادة.

ومن أعظم المصائب إعراضُ أكثر الناس عن النظر في معنى هذه الكلمة العظيمة حتى صار كثيرٌ منهم يقول: مَنْ قال لا إله إلا الله ما

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

نقول فيه شيئاً وإنْ فعل ما فعل؛ لعدم معرفتهم بمعنى هذه الكلمة نفياً وإثباتاً.

مع أنَّ قائل ذلك لا بدَّ أنْ يتناقض! فلو قيل له: ما تقول فيمن قال لا إله إلا الله ولا يُقِرُّ برسالة محمد بن عبد الله؟ لم يتوقف في تكفيره! أو أقر بالشهادتين وأنكر البعث؟ لم يتوقف في تكفيره! أو استحلَّ الزِّنا أو اللِّواط أو نحوهما، أو قال: إنَّ الصلوات الخمس ليست بفرض، أو أنَّ صيام رمضان ليس بفرض؟ فلا بدَّ أنْ يقول بكُفرِ مَنْ قال ذلك! فكيف لا تنفعه لا إله إلا الله إذاً! ولا تحول بينه وبين الكفر!

فإذا ارتكب ما يناقضها؛ وهو عبادة غير الله، وهو الشرك الأكبر الَّذي هو أكبر الكبائر؛ قيل: هو يقول لا إله إلا الله ولا يجوز تكفيره؛ لأنه يتكلم بكلمة التوحيد! لكنَّ آفة الجهل والتقليد أوجبت ذلك.

وهؤلاء ونحوهم إذا سمعوا مَنْ يقرِّر أمرَ التوحيد ويذكر الشرك؛ استهزؤوا به وعابوه!

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (قدس الله روحه) –في أثناء كلام له–: والضالون مستخفُّون بتوحيد الله، يعظِّمون دعاء غيره من الأموات، وإذا أُمروا بالتوحيد ونُهوا عن الشرك استخفُّوا به، كما قال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا} الآية، فاستهزؤوا بالرسول لـمَّا نهاهم عن

الشرك، وما زال المشركونَ يسبُّون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد؛ لِـمَا في أنفسهم مِنْ تعظيم الشرك، وكذلك مَنْ فيه شَبَهٌ منهم، إذا رأوا مَنْ يدعو إلى التوحيد استهزؤوا بذلك؛ لِـمَا عندهم مِنَ الشرك.

ومِنْ كيد الشيطان لمبتدعة هذه الأمة، المشركين بالبشر مِنَ المقبورين وغيرهم، لـمَّا عَلِمَ عدوُ الله أنَّ كلَّ مَنْ قرأ القرآنَ أو سمعه يَنفِرُ مِنَ الشرك ومِنْ عبادة غير الله؛ ألقى في قلوب الجُهَّال أنَّ هذا الَّذي يفعلونه مع المقبورين وغيرهم ليس عبادة لهم، وإنما هو توسُّلٌ وتشفُّعٌ بهم والتجاءٌ إليهم، ونحو ذلك، فسَلَبَ العبادةَ والشركَ اسمَهما مِنْ قلوبهم وكساهما أسماءً لا تَنفِرُ منها القلوب.

ثم ازدادَ اغترارُهم وعظُمتِ الفتنةُ بأنْ صارَ بعضُ مَنْ يُنسَبُ إلى علمٍ ودينٍ يُسَهِّل عليهم ما ارتكبوه مِنَ الشرك ويحتجُّ لهم بالحجج الباطلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فصل

وقد أوردَ بعضُهم أنَّ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية (رحمه الله) ذكرَ كلاماً وحكاياتٍ تدلُّ على أنَّ دعاء الأموات ليس بشرك!

كما ذُكر أنه رُوي أنَّ رجلاً جاء إلى قبر النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) فشكى إليه الجدب عام الرَّمادة(1)، فرآه وهو يأمره أنْ يأتي إلى عمر بن الخطاب فيأمره أنْ يستسقي بالناس! وغير ذلك من الحكايات.

قال بعض المجادلين: لو سُلِّم لكم في بعض الأمور أنها شرك أو كفر، فإنَّ الشيخ ذكر في اقتضاء الصراط المستقيم: أنَّ المتأوِّل والمجتهد المخطئ والمقلِّد مغفورٌ لهم ما ارتكبوه مِنَ الشرك والكفر!

فهذا تلبيسٌ مِنَ الناقل وكَذِبٌ على الشيخ (رحمه الله)؛ لأنه إنما قال ذلك في سياق الكلام في بعض البدع، كتحري دعاء الله عند قبر النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) أو غيره، فقال: وقد يفعل الرجل العمل الَّذي يعتقده صالحاً ولا يكون عالماً أنه منهي عنه، فيُثاب على حسن قصده ويُعفى عنه لعدم علمه، وهذا بابٌ واسع، وعامة العبادات المبتدَعَة المنهيُ عنها، قد يفعلها بعضُ الناس ويحصَل لهم نوع مِنَ الفائدة، وذلك لا يدل على أنها مشروعة، بل لو لم تكن مفسدتُها أغلبَ مِنْ مصلحتها، لَـمَا نُهي

(1) عام الرَّمادة كان سنة ١٨ مِنَ الهجرة، أصابت الناسَ فيه مجاعةٌ شديدة.

عنها، ثم الفاعل قد يكون متأوِّلاً أو مخطئاً، مجتهداً أو مقلداً؛ فيُغفر له خطؤه ويثابُ على ما فعله مِنَ الخير المشروع المقرون بغير المشروع.

قال: والحاصل أنَّ ما يقع مِنَ الدعاء المشتمل على كراهةٍ شرعية بمنزلة سائر العبادات؛ وقد علم أنَّ العبادة المشتملة على وصف مكروه قد تغفر تلك الكراهةَ لصاحبها؛ لاجتهاده أو تقليده أو حسناته أو غير ذلك؛ ثم ذلك لا يمنع أنَّ ذلك مكروه منهي عنه وإنْ كان هذا الفاعل المعيَّن قد زال موجب الكراهة في حقه.

قال: فإذا سمعتَ دعاءً أو مناجاةً مكروهةً في الشرع قد قُضيتْ حاجةُ صاحبها، فكثيراً ما يكون مِنْ هذا الباب... ولا يُقال: هؤلاء لـمَّا نقصتْ معرفتُهم سُوِّغ لهم ذلك! فإنَّ الله لم يُسوِّغ هذا لأحد، لكنَّ قصور المعرفة قد يُرجى معه العفو والمغفرة، أما استحبابُ المكروهات، أو إباحة المحرمات؛ فلا، فَفَرْقٌ بين العفو عن الفاعل والمغفرة له وبين إباحة فعله أو المحبة له... وإنما يثبتُ استحبابُ الأفعال واتخاذها ديناً بكتاب الله وسنة نبيه، وما كان عليه السابقون الأولون؛ وما سوى هذا مِنَ الأمور المحدثة؛ فلا تُستحبُّ وإنْ اشتملتْ أحياناً على فوائد، لأننا نعلمُ أنَّ مفاسدَها راجحةٌ على فوائدها.

ولـمَّا قرَّر (رحمه الله): أنَّ تحرِّي الدعاء عند القبور منهيٌّ عنه؛ قال: ولا يدخل في هذا الباب أنَّ قوماً سمعوا السلام مِنْ قبر النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) أو قبور غيره مِنَ الصالحين، وأنَّ سعيد بن المسيِّب كان يسمع الأذان مِنَ القبر ليالي الحرة، فهذا كلُّه حقٌّ ليس مما نحن فيه، والأمر أجلُّ مِنْ ذلك وأعظم.

قال: وكذلك أيضاً ما يُروى أنَّ رجلاً جاء إلى قبر النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) وشكا إليه الجَدَبَ عام الرَّمادة فرآه وهو يأمره أنْ يأتي عمر فيأمره أنْ يخرج فيستسقي بالناس، فإنَّ هذا ليس مِنْ هذا الباب... وكذلك سؤال بعضهم للنَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) أو غيرِه حاجة فتُقضى، فإنَّ هذا قد وقع كثيراً وليس هو مما نحن فيه.

إلى أنْ قال: وكلُّ هذا لا يقتضي استحبابَ الصلاة –عند القبور– ولا قصد الدعاء والنسك عندها؛ لِـمَا في قصد العبادات عندها من المفاسد التي حذَّر منها الشارع.

ثم قال (رحمه الله): فذكرتُ هذه الأمور؛ لأنَّها مما يُتوهم أنها معارِضة لما قدمنا، وليس كذلك، فإنَّ الخلق لم يُنهوا عن الصلاة عند القبور واتخاذها مساجد استهانةً بأهلها، بل لِـمَا يُخاف عليهم مِنَ الافتتان، وإنما تكون الفتنة إذا انعقدَ سببُها، فلولا أنه قد يحصل عند القبور ما يُخَاف الافتتانُ به؛ لَـمَا نُهيَ الناس عن ذلك. انتهى.

فانظر إلى قوله: (وليس هذا مما نحن فيه، وليس فيه معارضة لما ذكرنا)؛ لأنه قرَّرَ أنَّ قصد القبور لدعاء الله عندها بدعةٌ منهيٌ عنها، وكذلك قرَّرَ أنَّ دعاء الأموات والغائبين والاستغاثة بهم شرك، وذكر أنه ليس في جميع ما ذكره معارضةٌ لما قرَّره؛ دفعاً لما قد يُتوهم.

واحتجَّ بعضُ مَنْ يجادلُ عن المشركينَ بقصة الَّذي أوصى أهله أنْ يحرِّقوه بعد موته؛ على أنَّ مَنْ ارتكبَ الكفرَ جاهلاً لا يكفر، ولا يكفر إلا المعاند.

والجواب عن ذلك كله: أنَّ الله سبحانه أرسل رسله مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وأعظم ما أُرسلوا به ودعوا إليه عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}، والنهي عن الشرك الَّذي هو عبادة غيره.

فإنْ كان مرتكب الشرك الأكبر معذوراً لجهله، فَمَنْ هو الَّذي لا يُعذر؟!

ولازم هذه الدعوى: أنَّه ليس لله حجةٌ على أحدٍ إلا المعاند!

مع أنَّ صاحب هذه الدعوى لا يمكنه طردُ أصله، بل لا بدَّ أنْ يتناقض؛ فإنه لا يمكنه أنْ يتوقف في تكفير مَنْ شكَّ في رسالة محمد

(صلَّى الله عليه وسلَّم) أو شكَّ في البعث أو غير ذلك مِنْ أصول الدِّين، والشاكُّ جاهل.

والفقهاء (رحمهم الله) يذكرون في كتب الفقه حُكْمَ المرتد، وأنه المسلم الَّذي يكفُر بعد إسلامه؛ نطقاً أو فعلاً أو شكَّاً أو اعتقاداً، وسببُ الشك: الجهل.

ولازمُ هذا أنَّا لا نكفِّر جهلة اليهود والنصارى ولا الَّذين يسجدون للشمس والقمر والأصنام لجهلهم! ولا الَّذين حرَّقهم علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) بالنار؛ لأننا نقطع أنهم جُهَّال!

وقد أجمع العلماء على كفر مَنْ لم يكفِّر اليهود والنصارى أو يشكُّ في كفرهم، ونحن نتيقَّن أنَّ أكثرَهم جُهَّال.

وقال الشيخ تقي الدين: مَنْ سبَّ الصحابة أو واحداً منهم، واقترن بسبِّه دعوى أنَّ علياً إلهٌ أو نبي أو أنَّ جبرائيل غَلِطَ؛ فلا شكَّ في كُفر هذا، بل لا يُشكُّ في كُفر مَنْ توقفَّ في تكفيره.

قال: ومَنْ زَعَمَ أنَّ الصحابة ارتدُّوا بعد رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم) إلا نفراً قليلاً لا يبلغونَ بضعة عشر، أو أنهم فسقوا؛ فلا ريبَ في كفر قائل ذلك، بل مَنْ شكَّ في كفره فهو كافر.

قال: ومَنْ ظنَّ أنَّ قوله سبحانه وتعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ}، بمعنى: قدَّر، وأنَّ الله ما قدَّر شيئاً إلا وقع، وجعلَ عُبَّادَ الأصنام ما عبدوا إلا الله؛ فإنَّ هذا مِنْ أعظم الناس كفراً بالكُتب كلِّها. انتهى.

ولا ريبَ أنَّ أصحابَ هذه المقالة أهلُ علم وزهد وعبادة، وأنَّ سبب دعواهم هذه: الجهل.

وقد أخبر الله سبحانه عن الكفَّار أنهم في شكٍّ مما تدعوهم إليه الرُّسل، وأنهم في شكٍّ مِنَ البعث، فقالوا لرسلهم: {وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}، وقال: {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}، وقال إخباراً عنهم: {إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}.

وقال عن الكفار: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}، وقال تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}، ووَصَفَهم بغاية الجهل، كما في قوله تعالى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}، وقد ذمَّ الله المقلِّدينَ بقوله عنهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ} الآيتينِ، ومع ذلك كفَّرهم سبحانه وتعالى.

واستدلَّ العلماءُ بهذه الآية ونحوها على أنه: لا يجوز التقليد في معرفة الله والرِّسالة.

وحجَّة الله سبحانه قائمة على الناس بإرسال الرُّسل إليهم وإنْ لم يفهموا حججَ الله وبيِّناتِه.

قال الشيخ موفق الدِّين أبو محمد بن قدامة (رحمه الله) –لما أنجزَ كلامه في مسألة: هل كلُّ مجتهد مصيب؟ ورجَّح قول الجمهور: إنه ليس كل مجتهد مصيباً بل الحقُّ في قول واحد مِنْ أقوال المجتهدين– قال: وزعمَ الجاحظ أنَّ مخالف ملة الإسلام إذا نظرَ فعجزَ عن دَرَكِ الحقِّ؛ فهو معذورٌ غير آثم!

إلى أنْ قال: أما ما ذهب إليه الجاحظُ فباطلٌ يقيناً وكفرٌ بالله وردٌ عليه وعلى رسوله؛ فإنا نعلمُ قطعاً أنَّ النَّبيَّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) أمرَ اليهودَ والنَّصارى بالإسلام واتِّباعه، وذمَّهم على إصرارهم، وقاتلَهم جميعاً، وقتل البالغ منهم، ونعلمُ أنَّ المعاند العارف مـمَّن يقلُّ، وإنما الأكثرُ مقلِّدة؛ اعتقدوا دينَ آبائهم تقليداً ولم يعرفوا معجزةَ النَّبيِّ وصدقه، والآيات الدَّالة في القرآن على هذا كثيرة، كقوله: {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}، وقال: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ}، {إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}، وقوله: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ}، {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}، {الَّذِينَ ضَلَّ

سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ}، وفي الجملة: ذمُّ المكذِّبينَ للرَّسول مما لا ينحصر في الكتاب والسنة. انتهى.

والعلماءُ يذكرون: أنَّ مَنْ أنكرَ وجوبَ عبادةٍ مِنَ العبادات الخمس، أو قال في واحدة منها: إنها سنة لا واجبة، أو جَحَدَ حِلَّ الخبز ونحوه، أو جَحَدَ تحريمَ الخمر أو نحوه، أو شكَّ في ذلك، ومثلُه لا يجهلُه؛ كَفَرَ، وإنْ كان مثلُه يجهله عُرِّفَ ذلك، فإنْ أصرَّ بعد التعريف كَفَر وقُتل.. ولم يقولوا: فإذا تبيَّن له الحق وعاند؛ كفر!

وأيضاً، فنحن لا نعرفُ أنه معاند حتى يقول: أنا أعلم أنَّ ذلك حقٌّ ولا ألتزمه أو لا أقوله، وهذا لا يكادُ يوجد!

وقد ذكر العلماء مِنْ أهل كلِّ مذهب أشياءَ كثيرة لا يمكن حصرها مِنَ الأقوال والأفعال والاعتقادات؛ أنه يكفر صاحبُها، ولم يقيِّدوا ذلك بالمعاند.

فالمدَّعي أنَّ مرتكبَ الكفر متأوِّلاً أو مجتهداً مخطئاً أو مقلداً أو جاهلاً معذورٌ؛ مخالف للكتاب والسنة والإجماع بلا شك، مع أنه لا بدَّ أنْ يَنقُضَ أصله، فلو طرد أصله كفر بلا ريب، كما لو توقَّف في تكفير مَنْ شكَّ في رسالة محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) ونحو ذلك.

وأما الرَّجل الَّذي أوصى أهلَه أنْ يحرِّقوه، وأنَّ الله غفر له مع شكِّه في صفةٍ من صفات الرَّبِّ سبحانه، فإنما غُفر له لعدم بلوغ الرِّسالة له، كذا قال غير واحد مِنَ العلماء.

ولهذا قال الشيخ تقي الدين (رحمه الله): مَنْ شكَّ في صفة مِنْ صفات الرَّبِّ ومثلُه لا يجهلُها كَفَر، وإنْ كان مثلُه يجهلُها لم يكفر.

قال: ولهذا لم يكفِّرِ النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) الرجلَ الشاكَّ في قُدْرَة الله؛ لأنه لا يكون إلا بعد بلوغ الرِّسالة، وكذا قال ابنُ عقيل، وحَمَلَه على أنَّه لم تبْلغه الدعوة.

واختيار الشيخ تقي الدِّين في الصفات: أنه لا يُكفَّر الجاهل، وأما في الشرك ونحوه؛ فلا، كما ستقف على بعض كلامه إنْ شاء الله، وقد قدمنا بعض كلامه في الاتحادية[1] وغيرهم، وتكفيرَه مَنْ شكَّ في كفرهم.

---

(١) الاتِّـحَادِية: فرقةٌ ضالةٌ ملحدةٌ كافرة، والملاحدة فِرقٌ كثيرة، مِنْ رؤوسهم الـحُلُولية (أصحاب مذهب الحلول) والاتحادية (أصحاب مذهب الاتحاد) فالحلولية يزعمون أنَّ معبودَهم في كل مكان بذاته، ولم يصونوه عن أقبح الأماكن وأقذرها، وهؤلاء هم قدماء الجهمية، والطائفة الثانية (الاتحادية) القائلون بأنَّ الوجود بأسره وجميع الأضداد المتعارضة فيه، الكلُّ شيءٌ واحد، هو معبودهم بزعمهم، وأنَّ كل كلام يُسمع في الوجود -حقه وباطله- هو كلام الله، حتى كلام الحيوانات، كما يقولُ الاتحاديونَ أنَّ الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق، والرب هو العبد، والعبد هو الرب! وهذا المذهب الملعون -الَّذي انتحله ابن عربي ونَظَمَه ابنُ الفارض في تائيته- أصَّلَه ابنُ سبعين الرقوطي المتوفى سنة ٦٦٩، الَّذي اشتغل بالفلسفة وتولَّد له بسببها الإلحاد، وقد أقام بمكة وجاور بِغار حِراء يرتجي فيه الوحي أنْ يَنْزِل عليه بناءً على ما يعتقده منْ أنَّ النُّبوة مكتسبة، وكان إذا رأى الطائفينَ حولَ البيت يقول عنهم: كأنهم الحمير حول المدار، فما حصل له إلا الخزيُ والعار [انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي (رحمه الله)].

قال صاحب اختياراته[1]: والمرتد: مَنْ أشرك بالله، أو كان مبغضاً لرسوله، أو لِـمَا جاء به، أو ترك إنكار كلِّ منكر بقلبه، أو توهَّم أنَّ مِنَ الصحابة مَنْ قاتلَ مع الكفار، أو أجازَ ذلك، أو أنكر مُـجْمَعَاً عليه إجماعاً قطعياً، أو جعل بينه وبين الله وسائطَ يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، ومَنْ شكَّ في صفة من صفات الله ومثلُه لا يجهلها فمرتد، وإنْ كان مثلُه يجهلها فليس بمرتد؛ ولهذا لم يكفِّرِ النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) الرجل الشاك في قدرة الله تعالى.

فأطلقَ فيما تقدَّم مِنَ المكفِّرات، وفرَّق في الصفة بين الجاهل وغيره، مع أنَّ رأي الشيخ (رحمه الله تعالى) -في التوقُّف عن تكفير الجهمية ونحوهم- خلافُ نصوص الإمام أحمد وغيره مِنْ أئمة الإسلام.

قال المجد (رحمه الله): كلُّ بدعة كفَّرنا فيها الدَّاعية، فإنا نفسِّق المقلِّدَ فيها، كمَن يقول بخلق القرآن، أو أنَّ علم الله مخلوق، أو أنَّ أسماءه مخلوقة، أو أنه لا يُرى في الآخرة، أو يسبُّ الصحابة تديناً، أو أنَّ الإيمان مجرد الاعتقاد، وما أشبه ذلك، فمن كان عالماً في شيءٍ مِنْ هذه البدع، يدعو إليها ويناظر عليها، فهو محكومٌ بكفره، نصَّ أحمدُ على ذلك في مواضع. انتهى. فانظروا! كيف حَكَموا بكفرهم مع جهلهم.

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد البعلي المعروف بابن اللحام، من فقهاء الحنابلة، توفي سنة ٨٠٣ للهجرة، وكتابه المذكور هو (الاختيارات الفقهية).

فصل

ومما يتعين الاعتناء به: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ لأنَّ الله سبحانه ذمَّ مَنْ لا يعرفُ حدودَ ما أنزَل الله على رسوله، فقال تعالى: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ}.

قال شيخ الإسلام: ومعرفة حدود الأسماء واجبة؛ لأنَّ بها قيام مصلحة الآدميين في المنطق الَّذي جعله الله رحمةً لهم، لا سيما حدود ما أنزل الله على رسوله مِنَ الأسماء، كالخمر والربا، فهذه الحدود هي المميِّزة بين ما يدخل في المسمى وما يدل عليه مِنَ الصفات وبين ما ليس كذلك، وقد ذمَّ الله سبحانه مَنْ لم يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله. انتهى.

ففرضٌ على المكلَّف معرفة حدِّ العبادة وحقيقتِها التي خلقنا الله لأجلها، ومعرفة حدِّ الشرك وحقيقتِه الَّذي هو أكبر الكبائر.

وتجدُ كثيراً ممن يشتغلُ بالعلم لا يعرفُ حقيقةَ الشرك الأكبر وإنْ قال إنه الشرك في العبادة، لقوله تعالى: {وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا}، {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، وقوله (صلَّى الله عليه وسلَّم): «حقُّ الله على العباد أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئا»[1]، فإنه -مع اعترافه بأنَّ

(١) متفق عليه.

الشرك الَّذي حرَّمه الله هو الشرك في العبادة– لا يعرف حدَّ العبادة وحقيقتها، وربما قال: العبادةُ التي صرفُها لغير الله شركٌ: الصلاةُ والسجود، مع اعترافه بأنَّ الشرك الَّذي حرم الله هو الشرك في العبادة، فإذا طُلبَ منه الدَّليل على أنَّ الله سمَّى الصَّلاة لغيره أو السجود لغيره شركاً لم يجده! وربما قال: لأنَّ ذلك خضوع، والخضوع لغير الله شرك، فيُقال له: هل تجد في القرآن أو السنة تسميةَ هذا الخضوع شركاً؟ فلا يجده، فيلزمه أنْ يقول: لأنه عبادة لغير الله!

فيُـقال: وكذلك الدُّعاء والذبح والنذر عبادات، مع ما يلزم هذه العبادات مِنْ أعمال القلوب، مِنَ الذُّل والخضوع والحب والتعظيم والتوكُّل والخوف والرجاء وغير ذلك، وفي الحديث: «الدُّعاءُ مخُّ العبادة»[1].

وقد قَرَنَ الله سبحانه بين الصلاة والذبح في قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، أي: أخلص له صلاتَك وذبيحتَك، فكما أنَّ الصلاة لغير الله شركٌ؛ فكذا قرينُ الصلاة –وهو الذبح لغيره– شرك، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}.

(١) رواه الترمذي.

ومِنَ العجب قول بعض مَنْ يحتجُّ للمشركينَ بالأموات: إنهم لا يرجون قضاء حاجاتهم مِنَ الميت ونحوه!

فنقول: هذا مكابرةٌ ومغالطة؛ لأنه مِنَ المعلوم عند كلِّ ذي عقل أنهم ما دعوهم وتذلَّلوا وخضعوا لهم وبذلوا أموالهم بالنذور والذبائح؛ إلا لأنهم يرجون حصول مطلوبهم وقضاء حاجاتهم من جهتهم.

فكيف يُتصور عند عاقل أنْ يسمع مَنْ يسأل الميت والغائب حاجةً بأنْ يقول: أعطني كذا وأنا في حبك، ويستغيث به في دفع عدو أو كشف ضر، ويتذلَّل ويخضع له، ثم يقول: إنه لا يرجو حصول مطلوبه ودفع مرهوبه مِنْ جهته!

وكيف يُتصوَّر أنْ يبذل ماله بالنذر والذبح -مع أنَّ المال عزيز عند أهله- لمن لا يرجوه ويعتقد أنه لا يحصل له مِنْ جهته نفعٌ ولا دفعُ ضر! فهذا مِنْ أبين المحال وأبطل الباطل.

كيف وهم يفتخرون بقضاء حاجاتهم، وكشف كرباتهم مِنْ جهتهم!

فبعضٌ منهم يعتقد أنَّ الميت ونحوه يفعل ذلك أصالة.

وبعضهم يقول: هم وسيلتُنا إلى الله، يَعنُون واسطةً بينهم وبين الله، كما عليه المشركون الأولون؛ كما أخبر الله عنهم أنهم يقولون: {هَؤُلَاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ}، {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}.

بل كثيرٌ مِنْ مبتدعة هذه الأمة أعظمُ غلواً واعتقاداً في وَلَائِجِهم[1] مِنَ المشركين الأوَّلين؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أخبر عن المشركين الموجودين حين نزول القرآن: أنَّهم يخلصون لله الدعاء في حال الشدة وينسون آلهتهم، وكثير مِنْ غلاة أهل هذا الزمان يُخلصون الدعاء عند الأمور المهمة والشدائد لولائجهم كما هو مستفيض عنهم، قال الله تعالى إخباراً عن المشركين الأولين: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}، وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}، وقال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ}، وقال: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}.

ومِنَ العجب: قول بعض مَنْ يُنْسَبُ إلى علم ودين: إنَّ طلبهم مِنَ المقبورينَ والغائبينَ ليس دعاءً، لهم بل هو نداء! أفلا يستحي هذا القائل مِنَ الله –إذا لم يستحِ مِنَ الناس– مِنْ هذه الدعوى الفاسدة السامجة، التي

(١) الوَلائج: جمعُ وَلِيْجَة، ووَلِيجَةُ الرَّجل: بِطانَتُه ودُخلاؤه وخاصته، وفي التنزيل: {ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وَلِيجَة} أَي: ولم يتخذوا بينهم وبين الكافرين دَخِيلَةَ مَوَدّة [لسان العرب].

يروِّجُ بها على رَعَاعٍ[1] الناس، والله سبحانه وتعالى قد سمَّى الدُّعاء نداءً في قوله تعالى: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا}، وقوله: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، وأيُّ فرقٍ بين ما إذا سأَلَ العبدُ ربَّه حاجةً وبين ما إذا طلبها مِنْ غيره، ميت أو غائب، بأنَّ الأول يُسمَّى دعاء والثاني نداء؟!

ما أسمجَ هذا القول وأقبحَه! وهو قولٌ يُستحى مِنْ حكايته لولا أنه يروَّج على الجهال، لا سيما إذا سمعوه مِـمَّنْ يعتقدون علمَه ودينه.

وأيُّ فرقٍ بين سؤال الميت حاجةً وبين سؤالها مِنْ صنم ونحوه! بأنَّ الثاني يُسمَّى دعاء والأول نداء؟!

فإنْ قال: الكلُّ يُسمَّى نداءً لا دعاء؛ فهذا مُشاقَّة للقرآن ومحادَّة لله ورسوله، ولا يحتاج في بيان بطلانه إلى أكثر مِنْ حكايته، وما أظنُّ عاقلاً يحيك هذا في نفسه، وإنما هو عناد ومكابرة، إنما تُروَّج على أشباه البهائم.

أمَا يخافُ هذا أنْ يتناولَه قولُه تعالى: {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}، والله سبحانه وتعالى سمَّى سؤالَ غيره دعاءً في غير موضع مِنْ كتابه {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ}، والدعاء في القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة.

---

(١) الرَّعَاعُ -على وزن سَحَاب-: أَحداثُ الأَحلامِ مِنَ النَّاس، وسُقَّاطُهم وسَفَلَتُهم وغوغَاؤهم وأخلاطُهم، وفي حديث عُمَر: "إنَّ المَوسِمَ يَجمَعُ رَعاعَ الناس"، وفي حديث علي: "سائر الناسِ هَمَجٌ رَعاعٌ" [تاج العروس والعين].

فصل

ويُقالُ لمن ادَّعى أنَّ الشركَ هو الصلاة والسجود لغير الله فقط؛ مع أنَّ هذا مكابرةٌ مِنْ مدَّعيه: فكما أنَّ السجود عبادة؛ فكذلك الدعاء والنذر والذبح وغيرها، كما تقدم تعريفه.

وقد نهى الله عن دعاء غيره وذمَّ فاعلَ ذلك وأمرنا بإخلاص الدعاء له أكثر مما ذكر في خصوصية السجود، مع أنَّ الدُّعاء في القرآن يتناول دعاءَ المسألة ودعاءَ العبادة الَّذي يدخلُ فيه السُّجودُ وغيرُه مِنْ أنواع العبادة، قال الله تعالى: {وَأَنَّ الْـمَسَاجِدَ لله فَلَا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَدًا}، وقال: {فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، وقال: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ}، وقال: {وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ}، وقال: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ الله مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}، وقال: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ}، وفي القرآن مِنْ ذلك ما لا يُحصى.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله تعالى) –في الكلام على دعوة ذي النُّون–: لفظُ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة، وفَسَّر قوله تعالى: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} بالوجهين، وفي

حديث النزول: «مَنْ يدعوني فأستجيب له؟ مَنْ يسألني فأعطيه؟ مَنْ يستغفرني فأغفر له»[1]، والمستغفِر سائل، والسائل داعٍ، لكنَّ ذِكرَ السائل لدفع الشر بعد السائل للخير، وذكرَهما بعد الداعي الَّذي يتناولها وغيرَهما؛ مِنْ عطف الخاص على العام، وسمَّاها دعوة لتضمُّنها النوعين، فقوله: لا إله إلا أنت اعترافٌ بتوحيد الألوهية، وهو يتضمن النوعين؛ فإنَّ الإلهَ هو المستحِقُّ لِأنْ يُدْعَى بالنوعين.

وقال ابنُ القيم (رحمه الله تعالى) في البدائع بعد آياتٍ ذكرها، قال: وهذا في القرآن كثير، يبيِّنُ أنَّ المعبود لا بدَّ أنْ يكونَ مالكاً للنفع والضر، فهو يُدعى للنفع والضر دعاءَ المسألة، ويُدعى رجاءً وخوفاً دعاءَ العبادة، فعلم أنَّ النوعينِ متلازمان، فكلُّ دعاء عبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمِّنٌ لدعاء العبادة.

إلى أنْ قال: وليس هذا مِنْ استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، ولا استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً. انتهى.

فعلى هذا يكون النهيُ عن دعاء غيره سبحانه نصاً في دعاء العبادة، ودعاء المسألة حقيقةً، فهو نهيٌ عن كل منهما حقيقة.

---

(١) متفق عليه.

فصل

وقد ذكرنا أنَّ الشيخ تقي الدِّين إنما قال: "تُرجى المغفرةُ لمنْ فعل بعضَ البدع مجتهداً أو جاهلاً"، لم يقل ذلك فيمن ارتكبَ الشركَ الأكبر والكفر الظاهر، بل قد قال (رحمه الله تعالى): "إنَّ الشركَ لا يُغفر وإنْ كان أصغر"، وقد قدمنا بعض كلامه في ذلك، ونذكر هنا ما اطلعنا عليه من كلامه وكلام غيره مِن العلماء:

قال (رحمه الله تعالى) في شرح العمدة لَـمَّا تكلم في كفر تارك الصلاة، قال: وفي الحقيقة فكلُّ ردٍّ لخبر الله أو أمره: فهو كفرٌ دقَّ أو جلَّ، لكنْ قد يُعفى عمَّا خَفِيتْ فيه طرقُ العلم وكان أمراً يسيراً في الفروع، بخلاف ما ظهر أمرُه وكان مِنْ دعائم الدِّين مِنَ الأخبار والأوامر.

وقال (رحمه الله) –في أثناء كلام له في ذمِّ أصحاب الكلام–: والرازي مِن أعظم الناس في باب الحيرة، لكن هو مسرفٌ فيه، له نَهْمَةٌ في التشكيك، والشكُّ في الباطل خيرٌ مِنَ الثبات على اعتقاده، لكنْ قلَّ أنْ يثبُتَ أحدٌ على باطلٍ محض، بل لا بدَّ فيه مِنْ نوعٍ مِنَ الحق، وتوجد الرِّدَّة منهم كثيراً كالنفاق.

وهذا إذا كان في المقالات الخفية، فقد يُقال: لم تقم عليه الحجة التي يكفُرُ صاحبُها، لكن يقع ذلك في طوائف منهم في أمور يعلمها العامة والخاصة، بل اليهود والنصارى يعلمون أنَّ محمداً (صلَّى الله عليه وسلَّم)

بُعث بها وكفَّر مَن خالفها، مثل عبادة الله وحده لا شريك له ونهيه عن عبادة غيره، فإنَّ هذا أظهر شرائع الإسلام، ومثل أمره بالصلوات الخمس وتعظيم شأنها، ومثل معاداة المشركين وأهل الكتاب، ومثل تحريم الفواحش والرِّبا والميسر ونحو ذلك.

إلى أنْ قال: وصنَّف الرازي كتابه في عبادة الأصنام والكواكب، وأقام الأدلة على حسنه، ورغَّب فيه، وهذه ردَّةٌ عن الإسلام إجماعاً. انتهى.

فقوله (رحمه الله): "بل اليهودُ والنَّصارى يعلمون ذلك" هو كما قال؛ فقد سمعنا عن غير واحدٍ مِن اليهود أنهم يعيبون على المسلمين ما يُفعَل عند هذه المشاهد، يقولون: (إن كان نبيكم أمركم بهذا فليس بنبي، وإن كان نهاكم عنه فقد عصيتموه)! فيا سبحان الله! ما أعجب هذا! اليهود ينكرون هذه الأمور الشركية ويقولون ما يأتي بها نبي، وكثيرٌ مِنْ علماء هذا الزمان يجوِّزون ذلك ويُوردُون الشُّبهَ الباطلة عليه ويُنكرون على مَنْ أنكر!

وانظرْ إلى قولِ الشيخ: "لكنْ قد يُعفى عمَّا قد خَفِيتْ فيه طرقُ العلمِ وكان أمراً يسيراً في الفروع"، وقولِه أيضاً: "وهذا في المقالات الخفية فقد يقال: لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبها".

وقال الشيخ (رحمه الله) في الرِّسالة السنية -لـمَّا ذكر حديث الخوارج-: فإذا كانَ في زمن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم) وخلفائه

مَنْ قد مرقَ مِنَ الدِّين مع عبادته العظيمة؛ فلْيعلم أنَّ المنتسب إلى الإسلام في هذا الزمان قد يَمرُق أيضاً، وذلك بأمور منها: الغلو الَّذي ذمَّه الله تعالى، كالغلو في بعض المشايخ مثل الشيخ عدي، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح، فكلُّ مَنْ غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً مِنَ الإلهية، مثل أنْ يدعوه مِنْ دون الله بأنْ يقول: يا سيدي فلان اغثني، أو اجبرني، أو توكلت عليك، أو أنا في حبك؛ فكل هذا شرك وضلال، يُستتاب صاحبُه، فإنْ تابَ وإلا قُتل.

فإنَّ الله أرسل الرسل وأنزل الكتب ليُعبدَ وحده ولا يُجعل معه إله آخر، والَّذين يجعلون مع الله آلهة أخرى، مثل الملائكة والمسيح وعُزير والصالحين أو قبورهم، لم يكونوا يعتقدون أنَّها تخلق وترزق وإنما كانوا يدعونهم يقولون: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، فبعث الله الرُّسل تنهى أنْ يُدعى أحدٌ مِنْ دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استعانة.

وقال أيضاً (رحمه الله) وقد سئل عن رجلينِ تنازعا فقال أحدهما: لا بدَّ لنا مِنْ واسطة بيننا وبين الله، فإنَّا لا نقدر أنْ نصل إليه إلا بذلك، فأجاب الشيخ (رحمه الله) بقوله: إنْ أراد بذلك أنه لا بدَّ لنا مِنْ واسطة تبلِّغُنا أمر الله؛ فهذا حق، فإنَّ الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه، وما يأمر به وينهى عنه إلا بواسطة الرسل الَّذين أرسلهم الله إلى عباده، وهذا مما أجمع عليه أهلُ الملل مِن المسلمينَ واليهود والنصارى، فإنهم يُثبتون

الوسائط بين الله وبين عباده، وهم الرُّسل الَّذين بلَّغوا عن الله أوامرَه ونواهيه، قال تعالى: {اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْـمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}، ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل.

وإنْ أرادَ بالواسطة أنه لا بدَّ مِنْ واسطة يتخذها العباد بينهم وبين الله في جلب المنافع ودفع المضار -مثل أنْ يكونوا واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم- يسألونه بذلك ويرجعون إليه فيه؛ فهذا مِنْ أعظم الشرك الَّذي كفَّر الله به المشركين، حيث اتخذوا مِنْ دون الله أولياءَ وشفعاءَ يجتلبون بهم المنافع ويدفعون بهم المضار.

إلى أنْ قال: مَنْ جعل الأنبياء والملائكة وسائطَ يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أنْ يسألهم غفران الذنوب وهداية القلوب وتفريج الكُرُبات وسدَّ الفاقات؛ فهو كافر بإجماع المسلمين.

إلى أنْ قال: فمَنْ أثبتَ وسائطَ بين الله وبين خلقه -كالحُجَّاب الَّذين بين الملك وبين رعيته- بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، وأنَّ الله إنما يهدي عباده وينصرهم ويرزقهم بتوسطهم، بمعنى أنَّ الخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أنَّ الوسائط عند الملوك يسألون الملوك حوائج الناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أنْ يباشروا سؤال الملك، أو لأنَّ طلبهم مِنَ الوسائل أنفع لهم مِنْ طلبهم مِنَ الملك،

لكونهم أقرب إلى الملك مِنَ الطالب، فَمَنْ أثبتَهم وسائطَ على هذا الوجه فهو كافرٌ مشركٌ يجبُ أنْ يُستتاب، فإنْ تابَ وإلا قُتل.

وهؤلاء مشبِّهون، شبَّهوا الخالقَ بالمخلوق، وجعلوا لله أنداداً، وفي القرآن مِنَ الرد على هؤلاء ما لا تتسع له هذه الفتوى.

فإنَّ هذا دينُ المشركينَ عُبَّاد الأوثان، كانوا يقولون: (أنها تماثيل الأنبياء والصالحين، وأنها وسائل يتقرَّبون بها إلى الله)، وهو مِنَ الشرك الَّذي أنكره الله على النصارى حيث قال: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْـمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} . انتهى.

فقد جزمَ (رحمه الله) في مواضع كثيرة بكفر مَنْ فعل ما ذكره مِنْ أنواع الشرك، وحكى إجماعَ المسلمين على ذلك، ولم يستثنِ الجاهل ونحوه، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}، وقال عن المسيح أنه قال: {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ}، فمن خصَّ ذلك الوعيد بالمعاند فقط وأخرج الجاهل والمتأوِّل والمقلِّد؛ فقد شاقَّ الله ورسوله وخرجَ عن سبيل المؤمنين.

والفقهاء يصدِّرون باب حكم المرتد بـ(مَنْ أشرك بالله)، ولم يقيِّدوا ذلك بالمعاند، وهذا أمر واضح ولله الحمد، وقد قال الله تعالى: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}.

وقال الشيخ أيضاً: وهذه الأمور المبتدَعة عند القبور أنواع، أبعدُها عن الشرع أنْ يُسأَلَ الميتَ حاجةً كما يفعلُه كثيرٌ مِنَ الناس، وهؤلاء مِنْ جنس عُبَّاد الأصنام، ولهذا قد يتمثل لهم الشيطان في صورة الميت والغائب، كما يتمثل لعُبَّاد الأصنام.

ومِنْ تقريره (رحمه الله) في هذا الأصل ما ذكره في اقتضاء الصراط المستقيم، حيث قال: إنَّ الدعاءَ المتضمِّن شركاً، كدعاء غيره أنْ يفعل أو دعائه أنْ يدعو ونحو ذلك، ليحصِّل غرض صاحبه، ولا يُورث حصول الغرض شبهة إلا في الأمور الحقيرة، وأما الأمور العظيمة، كإنزال الغيث عند القُحوط وكشف العذاب النازل، فلا ينفع فيه هذا الشرك، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}، وقال: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، وقال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ}، وقال: {أَمَّن يُجِيبُ الْـمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}، فكون هذه المطالب العظيمة لا يستجيبُ فيها إلا هو سبحانه دلَّ على توحيده وقطع شبهة مَنْ أشرك به، وعُلم بذلك أنَّ ما دون هذا أيضاً مِنَ الإجابات إنما فعلَها هو سبحانه وحده لا شريك له، وإنْ كانت تجري بأسباب محرمة أو مباحة، كما أنَّ

خلقه السموات والأرض والسَّحاب والرِّياح وغير ذلك مِنَ الأجسام العظيمة دالٌ على وحدانيته وأنه خالقُ كلِّ شيء، وأنَّ ما دون هذا بأنْ يكون خلقاً له أولى، إذ هو منفعل عن مخلوقاته العظيمة، فخالقُ السبب التام خالقٌ للمسبِّب لا محالة.

وجِماعُ ذلك بأنَّ الشرك نوعان:

شركٌ في ربوبيته: بأنْ يُجعلَ معَهُ لغيره تدبيرٌ ما، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ}، فبيَّن أنهم لا يملكون ذرةً استقلالاً ولا يشركونه في شيءٍ مِنْ ذلك ولا يعينونه على ملكه، فَمَنْ لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً فقد انقطعتْ علاقته.

وشركٌ في الألوهية: بأنْ يُدعى غيرُه، دعاءَ عبادة أو دعاءَ مسألة، كما قال تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

فكما أنَّ إثباتَ المخلوقاتِ أسباباً لا يقدحُ في توحيد الربوبية ولا يمنع أنْ يكون الله خالق كل شيء ولا يُوجب أنْ يُدعى المخلوق دعاء عبادة أو دعاء استعانة؛ كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة مِنْ شرك أو غيره أسباباً لا يقدح في توحيد الإلهية ولا يمنع أنْ يكون الله هو الَّذي يستحق الدِّين الخالص، ولا يوجب أنْ تستعمل الكلمات والأفعال التي فيها شرك إذا كان الله يسخط ذلك ويعاقب العبد عليه، وتكون مضرة ذلك

على العبد أكثر من منفعته؛ إذ قد جعل الخير كله في أنْ لا نعبد إلا إياه ولا نستعين إلا إياه، وعامة آيات القرآن تُثبت هذا الأصل، حتى أنه سبحانه قطع أثر الشفاعة بدون إذنه.

فذكرَ (رحمه الله) آياتٍ كثيرة في هذا المعنى، ثم قال: والقرآنُ عامَّتُه إنما هو في تقرير هذا الأصل العظيم الَّذي هو أصل الأصول.

وقال (رحمه الله) في موضع آخر: ونحن نعلم بالضرورة، أن النَّبيَّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) لم يشرِّع لأمته أنْ تدعو أحداً مِنَ الأحياء والأموات، لا الأنبياء ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بلفظ الاستعانة ولا بغيرهما، كما لم يشرِّع السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن ذلك كله وأنه مِنَ الشرك الَّذي حرمه الله ورسولُه، لكنْ لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرِّسالة في كثير مِنَ المتأخرين؛ لم يمكِن تكفيرُهم حتى يُبيَّن لهم ما جاء به الرسول.

قال: ولهذا ما بيَّنتُ هذه المسألة قط لمنْ يعرف أصلَ دين الإسلام إلا تفطَّن لها وقال: هذا أصل دين الإسلام، وكان بعض أكابر الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول: هذا أعظم ما بيَّنتَه لنا؛ لعلمه بأنَّ هذا أصل الدِّين. انتهى.

فقوله (رحمه الله): "لم يمكن تكفيرُهم حتى يبيِّن لهم ما جاء به الرسول"، أي: لم يمكن تكفيرهم بأشخاصهم وأعيانهم، بأن يُقال: فلان

كافر ونحوه، بل يُقال: (هذا كفر، ومَنْ فعلَه كافر)، كما أطلق (رحمه الله) الكفر على فاعل هذه الأمور ونحوها في مواضع لا تحصى، وحكى إجماع المسلمين على كفر فاعل هذه الأمور الشركية، وصرَّح بذلك (رحمه الله) في مواضع، كما قال في أثناء جواب له في الطائفة القَلَنْدَرِيَّة(١).

قال بعد كلام كثير: وأصلُ ذلك أنَّ المقالة التي هي كفر في الكتاب والسنة والإجماع، يُقال: هي كفر مطلقاً؛ كما دلَّ على ذلك الدليل الشرعي، فإنَّ الإيمان والكفر من الأحكام المتلقَّاة عن الله ورسوله، ليس ذلك مما يحكم الناس فيه بظنونهم، ولا يجبُ أنْ يُحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر حتى تثبتُ في حقِّه شروط التكفير، وتنتفي موانعه، مثل مِنْ قال: إنَّ الزنا أو الخمر حلال؛ لقُرب عهده بالإسلام أو نشوئه ببادية بعيدة.

وقال (رحمه الله) في موضع آخر –في أثناء كلام له على هذه المسألة–: وحقيقة الأمر في ذلك أنَّ القول يكون كفراً فيُطلقُ القولُ بتكفير صاحبه فيُقال: مَنْ قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعيَّن الَّذي قاله لا يُحكم

---

(١) القَلَنْدرية: طريقة من طرق الصوفية، قال عنها شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله): "أما هؤلاء القلندرية المحلقي اللِّحى فَمِنْ أهل الضلالة والجهالة، وأكثرُهم كافرون بالله ورسوله، لا يرون وجوبَ الصلاة والصيام، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، بل كثيرٌ منهم أكفرُ منَ اليهود والنصارى، وهم ليسوا مِنْ أهل الملَّة ولا من أهل الذمَّة، وقد يكون فيهم مَنْ هو مسلم، لكنْ مبتدع ضال أو فاسق فاجر، ومَنْ قالَ أنَّ قلندر –مؤسس الطريقة– موجود في زمن النَّبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– فقد كَذَبَ وافترى" [مجموع الفتاوى].

بكفره حتى تقوم عليه الحجَّة التي يكفُرُ تاركُها، فهذا كما في نصوص الوعيد، فإنَّ الله يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}، فهذا ونحوه مِنْ نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعيَّن لا يشهد عليه بالوعيد فلا نشهدُ لمعيَّن مِنْ أهل القبلة بالنار؛ لجواز ألَّا يلحقه الوعيد لفوات شرطه أو بثبوت مانع، فقد لا يكون بَلَغَهُ التحريم، وقد يتوب من فِعْله المحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم، وقد يُبتلى بمصائب تكفِّر عنه.

وقال ابنُ القيم في شرح المنازل: ومِنْ أنواعه –أي: الشرك– طلبُ الحوائج مِنَ الموتى والاستغاثة بهم والتوجُّه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإنَّ الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً لمن استغاث به وسأله أنْ يشفع له.

وقال في أثناء كلام له: فما أسرع أهل الشرك إلى اتِّخاذ الأوثان مِنْ دون الله ولو كانت ما كانت! ويقولون: إنَّ هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر! أي: تقبل العبادة من دون الله تعالى، فإنَّ النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له.

وقال في الهدي –في فوائد غزوة الطائف–: ومنها: أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي مِنْ أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار

عليها بعد القدرة البتَّة، وهذا حُكْمُ الـمَشَاهِد التي بُنيتْ على القبور التي اتُّخِذتْ أوثاناً وطواغيتَ تُعبد مِنْ دون الله، والأحجار التي تُقصد بالتعظيم والتبرُّك والنذر والتقبيل، فلا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، بل أعظم شركاً عندها وبها، والله المستعان.

ولم يكنْ أحدٌ مِنْ أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانُهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتَّبع هؤلاء سننَ من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القُذَّة بالقُذَّة، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وغلبَ الشرك على أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم، فصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً والسنة بدعة والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير وهَرِمَ عليه الكبير، وطُمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العلماء وغلبت السفهاء، وتفاقم الأمر واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

ولكنْ لا تزال طائفة مِنَ العصابة المحمَّدية بالحقِّ قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أنْ يرث الله الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين. انتهى.

والأمر كما قال (رحمه الله): إنَّ سبب حدوث الشرك وظهوره: ظهور الجهل وخفاء العلم وقلة العلماء وغلبة السفهاء.

فيستبين لطالب الحق: أنَّ مَنْ جادلَ عن المشركين وسهَّل عليهم ما ارتكبوه من الشرك واحتج لهم بالحجج الباطلة؛ أنه فاقدٌ أصلَ العلم، فيستحقُّ أنْ يوصفَ بالجهل، وإنْ كان له اشتغال بأنواع مِنَ العلومِ القليلِ نفعُها.

ففي هذا مصداقُ قول النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): «لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قبلَكم حذوَ القُذَّة بالقُذَّة»[1].

وما أحسن ما قال ابن المبارك:

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها

ويُروى أنَّ هلاكَ مَنْ قبلَنا كان على يد قرَّائهم وفقهائهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال ابنُ القيم: ومَنْ ذبحَ للشيطان ودعاه واستعاذَ به وتقرَّبَ إليه بما يحبُّ فقد عبدَه وإنْ لم يُسمِّ ذلك عبادة ويسميه استخداماً، وصَدَقَ، هو استخدام من الشيطان له.

---

(١) متفق عليه، وجملة (حذو القذة بالقذة) ليس في الصحيحين، وإنما هي عند أحمد في المسند.

وقال:

والشركُ فاحذرهُ، فشركٌ ظاهرٌ ... ذا القسم ليسَ بقَابلِ الغفرانِ
وهـو اتِّخـاذُ الندِّ للرَّحمــــ ... نِ أيّاً كانَ مِنْ شَجَرٍ ومِنْ إنسانِ
يدعـوهُ أو يرجـوهُ ثم يخافهُ ... ويحــبُّهُ كـمحـبَّةِ الدَّيـانِ
والله ما سَـاوَوْهُـم بالله في ... خَـلقٍ ولا رزقٍ ولا إحـسانِ
لكـنهم سَـاوَوْهُـم بالله في ... حــبٍّ وتعـــظيمٍ وفي إيمانِ
جـــعلوا محبَّتهم مَعَ الرَّحمن ما ... جــعلوا المحــبةَ قطُّ للرَّحمنِ

وقال شيخ الإسلام: وأما ما نذره لغير الله، كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أنْ يحلف بغير الله مِنَ المخلوقات، والحالف بالمخلوقات لا وفاءَ عليه ولا كفَّارة، وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء ولا كفارة، لأنَّ كليهما شرك، والشرك ليس له حرمة، بل عليه أنْ يستغفر الله مِنَ العَقْدِ، ويقول ما قال النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): «مَنْ حَلَفَ باللَّات والعُزَّى فليقلْ: لا إله إلا الله»(١).

قوله: (فهو بمنزلة أنْ يحلف بغير الله) أي: في عدم الانعقاد؛ لأنَّ حقيقته كحقيقته؛ لأنَّ النذر عبادة بخلاف الحلف.

(١) متفق عليه.

وقال أيضاً: قوله: {وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ}، ظاهره: أنه ما ذُبح لغير الله، مثل أنْ يقول: هذه ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا المقصود، فسواء لُفِظَ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر مِنْ تحريم ما ذبح للحم وقيل فيه: باسم المسيح ونحوه؛ لأنَّ ما ذبحناه متقرِّبينَ به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا فيه بسم الله، فإنَّ عبادة الله بالصلاة له والنسك أعظمُ مِنَ الاستعانة باسمه في فواتح الأمور؛ فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى، فإنَّ العبادة لغير الله أعظم كفراً مِنَ الاستعانة بغير الله.

فعلى هذا: فلو ذبح لغير الله متقرِّباً إليه لَـحَرُم وإنْ قال فيه بسم الله، كما يفعله طائفة مِن منافقي هذه الأمة، الَّذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإنْ كان هؤلاء مرتدِّينَ لا تُباح ذبيحتُهم بحال، لكنْ يجتمع في الذبيحة مانعان، ومِنْ هذا الباب ما يفعله الجاهلون بمكة مِنَ الذبح للجن.

قال: ولهذا كان عُبَّادُ الشياطين والأصنام يذبحون لها الذبائح، فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع؛ ولهذا لم يجز الذبح لغير الله.

وقال في موضع آخر: والمسلم إذا ذبح لغير الله، أو ذبح بغير اسمه لم تُبَح ذبيحته وإنْ كان يكفر بذلك.

إلى أنْ قال: ولأنَّ الذبح لغير الله وباسم غيره: قد علم أنه ليس من دين الإسلام، بل هو من الشرك الَّذي أحدثوه.

قال: وقول الشيخ: انذروا لي لتقضى حاجتكم أنْ استعينوا بي، إنْ أصر ولم يتب، قُتِل.

وقال أبو محمد البَرَبَهاري –شيخ الحنابلة في وقته– في عقيدته: ولا نُخْرِجُ أحداً مِنْ أهل القبلة مِنَ الإسلام، حتى يردَّ آية مِنْ كتاب الله أو يردَّ شيئاً مِنْ آثار رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم)، أو يُصلِّيَ لغير الله أو يذبح لغير الله، وإذا فعل شيئاً مِنْ ذلك فقد وجبَ عليك أنْ تُخرجه منَ الإسلام –في كلام كثير– انتهى. سمعه البربهاري من الـمَرُّوذِي وغيره.

وقال ابن القيم: رأيتُ لأبي الوفاء بن عقيل فصلاً حسناً، فذكرته بلفظه، قال: لَـمَّا صعُبت التكاليفُ على الجهَّال والطَّغَام[1]، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهُلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم.

قال: وهم عندي كفارٌ بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع، مثل: إيقاد السُّرُج، وتقبيلها، وتخليقها، وخطاب أهلها بالحوائج، وكتب الرِّقاع فيها (يا مولاي افعل لي كذا وكذا)، وأخذ تربتها

(١) الطَّغَام: أراذل الناس وأوغادهم [لسان العرب].

تبرُّكاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشدِّ الرِّحال إليها، وإلقاء الخِرَق على الشجر اقتداءً بمن عَبَدَ اللَّات والعُزَّى، والويل عندهم لمن لم يقبِّل مشهدَ الكَف، ولم يتمسح بالآجُر[1] يوم الأربعاء، ولم يَقُل الحَمَّالون على جنازته: أبو بكر الصديق ومحمد وعلي، أو لم يعقد على قبر أبيه أَزَجاً[2] بالجص والآجُر، ولم يخرق ثيابه، ولم يُرِق ماء الورد على القبر. انتهى.

فانظر إلى تكفير ابن عقيل لهم، مع إخباره بجهلهم.

وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار: النذر الَّذي ينذره أكثر العوام، على ما هو مشاهَد الآن: كأنْ يكون لإنسان غائبٌ أو مريض، أو له حاجة ضرورية، فيأتي إلى قبر بعض الصُّلحاء ويجعل على رأسه سترة، ويقول: يا سيدي فلان، إنْ ردَّ الله غائبي أو عوفي مريضي، أو قضيت حاجتي؛ فلك مِنَ الذهب كذا، أو مِنَ الفضة كذا، أو مِنَ الطعام كذا، أو مِنَ الماء كذا، أو مِنَ الشمع كذا؛ فهذا باطلٌ بالإجماع لوجوه، منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز، لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها: أنَّ المنذور له ميت، والميت لا يملك، ومنها: أنه ظنَّ أنَّ الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر.

---

(١) الآجُر: اللَّبِن المُعَدُّ للبناء، وهو طبيخُ الطين أو الطُّوب الَّذي يُبنى به [تاج العروس ومختار الصحاح].

(٢) الأَزَج: ضَربٌ مِنَ الأبنية يُبنى طولاً، وأَزَجَ البناءَ: بناه وطوَّله [لسان العرب وتاج العروس].

إلى أنْ قال: إذا علمتَ ذلك، فما يؤخذ مِنَ الدراهم والشمع والزيت وغيرها، وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرُّباً إليهم؛ فحرامٌ بإجماع المسلمين.

وقال النووي –في شرح مسلم، على قول النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): «لعن الله مَنْ ذبح لغير الله»–: المراد به أنْ يذبح بغير اسم الله، كمَنْ يذبح للصنم أو للصليب، أو لموسى أو لعيسى، أو للكعبة، ونحو ذلك، وكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة، وسواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً.

إلى أنْ قال: فإنْ قَصَدَ مع ذلك تعظيم المذبوح له –غير الله– والعبادة له، كان كفراً، فإنْ كان الذابح مسلماً صار بالذبح مرتداً. انتهى.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي –في الرد على مَنْ أجاز النذر والذبح للأولياء، وأثبت الأجر في ذلك–: فهذا الذبح والنذر إنْ كان على اسم فلان وفلان، لغير الله، فيكون باطلاً.

وفي التنزيل: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ}، {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ}، أي: صلاتي وذبحي لله، كما فسر به قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}.

قال: والنذر لغير الله إشراكٌ مع الله.

إلى أنْ قال: والنذر لغير الله كالذبح لغيره، قال الفقهاء: خمسةٌ لغير الله شرك: الركوع، والسجود، والذبح، والنذر، واليمين.

قال: والحاصل أنَّ النذر لغير الله فجور، فمن أين تحصل لهم الأجور!

وقال ابن النحاس في كتاب الكبائر: ومنها: إيقاد السرج عند الأحجار والأشجار والعيون والآبار، ويقولون: إنها تَقْبَل النذر! وهذه كلها بدع ومنكرات قبيحة، تجبُ إزالتُها ومحو أثرها، فإنَّ أكثر الجهال يعتقدون أنها تنفع وتضر، وتجلب وتدفع، وتشفي المرضى، وترد الغائب إذا نذر لها، وهذا شركٌ ومحادَّةٌ لله ورسوله.

وقال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي، المعروف بأبي شامة في كتاب البدع والحوادث: ومِنْ هذا القسم أيضاً: ما قد عمَّ الابتلاء به، مِنْ تزيين الشيطان للعامة تخليقَ الحيطان والعُمُد، وسرج مواضع مخصوصة، يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحداً ممَّن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله وسننه، ويظنون أنهم متقرِّبون بذلك.

ثم يتجاوزون هذا، إلى أنْ يَعظُم وقعُ تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظِّمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي مِنْ بين عيون وشجر وحائط! وفي مدينة دمشق صانها الله مِنْ ذلك مواضع متعددة: كعوينة الحمى خارج باب توما، والعمود المخلق داخل

باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهَّل الله قطعها واجتثاثها مِنْ أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث، وَذَكَرَ الحديث.

ثم قال: قال أبو بكر الطرطوشي: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم: سِدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِها، وينوطون بها المسامير والخرق؛ فهي ذات أنواط، فاقطعوها.

ثم قال: ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبيناني (رحمه الله) -أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة-: حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي العباس المؤدِّب: أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها، يأتونها من الآفاق، مَنْ تعذَّر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بي إلى العافية، فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبد الله: فأنا في السحر ذات ليلة، إذ سمعتُ أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها، وأذن الصبح عليها، ثم قال: اللَّهُم إني هدمتُها لك فلا ترفع لها رأسا، فما رُفع لها رأس إلى الآن.

وكان الإمام أبو محمد بن أبي زيد يعظم شأن أبي إسحاق هذا، ويقول: طريقة أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي -في كتابه الَّذي ألفه في الرد على من ادعى أنَّ للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة-:

هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدَّعون أنَّ للأولياء تصرفاً في حياتهم وبعد الممات، ويُستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات! وقالوا: منهم أبدال ونقباء وأوتاد ونجباء، وسبعون وسبعة وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس وعليه المدار بلا التباس، وجوَّزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور!

قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي؛ لِـمَا فيه مِنْ روائح الشرك المحقق، ومضادة الكتاب العزيز المصدق، ومخالف لعقائد الأئمة، ما اجتمعت عليه الأمة، وفي التنزيل: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا}.

إلى أنْ قال: الفصل الأول: فيما انتحلوه مِنَ الإفك الوخيم والشرك العظيم.

إلى أنْ قال: فأما قولهم: إنَّ للأولياء تصرفاً في حياتهم وبعد الممات، فيردُّه قول الله تعالى: {أَإِلَهٌ مَّعَ الله}، {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}، {وَلله غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، ونحوه مِنَ الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيءٍ ما بوجه مِنَ

الوجوه، والكلُّ تحت ملكه وقهره، تصرفاً وملكاً، وإحياءً وإماتةً، وخلقاً، وتمدَّح الرَّبُّ سبحانه بانفراده في ملكه بآيات مِنْ كتابه، كقوله: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ}، و{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ}، وذكرَ آياتٍ في هذا المعنى.

ثم قال: فقوله في الآيات كلها: مِنْ دونه، أي: مِنْ غيره، فإنه عام يدخل فيه مَنْ اعتقدته مِنْ ولي وشيطان تستمدُّه، فإنْ لم يقدر على نصر نفسه كيف يَمُد غيرَه؟!

إلى أنْ قال: فكيف يتصور لغيره -من ممكن- أنْ يتصرف؟! إنَّ هذا مِنَ السفاهة لقول وخيم، وشرك عظيم.

إلى أنْ قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أقبح وأشنع وأبدع مِنَ القول بالتصرف في الحياة، قال جلَّ ذكره: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}، {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْـمَوْتَ}، {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْـمَوْتِ}، {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}، وفي الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث»(١)، فجميعُ ذلك وما هو نحوه، دال على انقطاع الحس والحركة مِنَ الميت، وأنَّ أرواحهم مُـمْسَكَة، وأنَّ أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدلَّ

---

(١) رواه مسلم.

ذلك أنْ ليس للميت تصرف في ذاته –فضلاً عن غيره– بحركة، وأنَّ روحه محبوسة مرهونة بعملها مِنْ خير وشر، فإذا عجز عن حركته لنفسه فكيف يتصرف لغيره؟! فالله سبحانه يُخبر أنَّ الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إنَّ الأرواح مطلقة متصرفة! قُلْ أأنتم أعلم أم الله؟!

قال: وأما اعتقادُهم أنَّ هذه التصرفات لهم مِن الكرامات؛ فهو مِنَ المغالطة، لأنَّ الكرامة شيء مِنْ عند الله، يُكرم بها أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحد، ولا قُدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران وأُسيد بن حضير وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم: ويُستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع؛ لمضادة قوله تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْـمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ الله}، {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، وذَكَرَ آيات في هذا المعنى.

ثم قال: إنه جلَّ ذكرُه قرَّرَ أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتعين لكشف الشدائد والكرب، وأنه المتفرِّد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضير وعلى إيصال الخير، فهو المنفرد بذلك، فإذا تعين جلَّ ذكره خرج غيرُه مِنْ مَلَك ونبي وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية، مِنَ الأمور الحسية: في قتال، أو إدراك عدو أو سبع ونحوه، كقولهم: يالَـزَيدٍ، يالقومي ياللمسلمين؛ كما ذكروا في كتب النحو، بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض، وخوف الغرق، والضيق، والفقر، وطلب الرزق، ونحوه، فمن خصائص الله، فلا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم؛ كما فعله عرب الجاهلية ، والصوفية الجهَّال، وينادونهم ويستنجدون بهم؛ فهذا من المنكرات.

إلى أنْ قال: فَمَنْ اعتقد أنَّ لغير الله، مِنْ نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك، في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيراً؛ فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة مِنَ السعير، وأما كونهم مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات؛ فحاشا أولياء الله أنْ يكونوا بهذه المثابة، فهذا ظن أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: {هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ}، {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ}، فإنَّ ذكر ما ليس مِنْ شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره، على وجه الإمداد منه؛ إشراكٌ مع الله؛ إذ لا قادر على الدفع غيرُه، ولا خير إلا خيره.

وأما ما قـالوه: إنَّ فـيهم أبـدالاً ونقبـاء، وأوتـاداً ونجبـاء، وسـبعين وسـبعة وأربعـين وأربعـة، والقطـب هـو الغـوث للنـاس؛ فهـذا مِـنْ موضوعات إفكهم، كـما ذكـره القـاضي المحـدث ابـن العـربي في سراج المريدين، وابن الجوزي وابن تيمية. انتهى باختصار.

وكلام العلماء في ذلك كثير واكتفينا بما ذكرنا.

فصل

وتقدَّم في كلام الشيخ[1] الإشارة إلى أنه لولا أنه يُخشى مِنَ الفتنة بالقبور لما نُهي عن الصلاة عندها وغير ذلك، وتأكدت الفتنة بقضاء بعض حوائج قاصديها والمشركين بها، وذكر الشيخ (رحمه الله) مِنْ ذلك أشياء كثيرة ذكرها في (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وغيره من كتبه.

قال: والشيطان يُضل بني آدم بحسب قدرته، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها كما يفعله أهل دعوى الكواكب؛ فإنه ينزل عليه شيطانٌ يخاطبه ويحدِّثه ببعض الأمور يسمون ذلك روحانيات الكواكب، وهو شيطان، وكذلك عبَّاد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين، وكذلك مَنْ استغاث بميت أو غائب، وكذلك مَنْ دعا الميت، أو دعا عنده، وظن أنَّ الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد.

وللنصارى والضُلَّال مِنَ المسلمين أحوال عند المشاهد، يظنونها كرامات وهي مِنَ الشيطان، مثل أنْ يضعوا سراويل عند القبر، فيجدونه قد عقد، أو يوضع عنده مصروع فيبصرون شيطانه قد فارقه، فيفعل هذا

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله).

الشيطان ليضلهم، ومثل أنْ يرى أحدهم أنَّ القبر قد انشق، فيخرج منه إنسان، فيظنه الميت.

ومِنْ هؤلاء مَنْ يستغيثُ بمخلوق حي أو ميت، سواء كان ذلك الحي مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث، فيظن أنه ذلك الشخص، أو أنه مَلَكٌ على صورته، وإنما هو شيطانٌ أضله لـمَّا أشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين.

ومِنْ هؤلاء مَنْ يتصوَّر له الشيطانُ ويقول له: أنا الخضر! وربما أخبره ببعض الأمور، وأعانه على بعض مطالبه، ومنهم مَنْ يطير به الجِنِّيُّ إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما! ومنهم مَنْ يحمله عشية عرفة ثم يعيده مِنْ ليلته! ومنهم مَنْ كان يُؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به! ومنهم مَنْ كانت تدله على السرقات!

قال (رحمه الله): حتى إني أعرفُ مِنْ هؤلاء جماعاتٍ يأتون إلى الشيخ نفسه الَّذي استغاثوا به -وقد رأوا أنه أتاهم في الهواء- فيذكرون ذلك له، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، فتارةً يكون الشيخ نفسه لم يعلم بتلك القضية، فإنْ كان يحبُّ الرِّياسة سكت، وأوهمهم أنه نفسه أتاهم وأعانهم، وإنْ كان فيه صدق مع جهل وضلال قال: هذا مَلَكٌ صوَّره الله على صورتي! وجعل هذا مِنْ كرامات الصالحين، وجعله عمدة لمن يستغيث

بالصالحين ويتخذهم أرباباً، وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكته على صورهم تغيث المستغيثين بهم.

ولهذا، أعرفُ غيرَ واحدٍ منهم مـمَّن فيه صدق وزهد وعبادة، لَـمَّا ظنوا أنَّ هذا مِنْ كرامات الصالحين، صارَ أحدُهم يوصي مريديه، يقول: إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي وليستنجدني! ويقول: أنا أفعل بعد موتي ما كنتُ أفعل في حياتي! وهو لا يعرف أنَّ تلك شياطين تُصوَّر على صورته، لتُضلَّه وتضل أتباعه، فيحسِّن لهم الإشراكَ بالله ودعاءَ غيرِ الله والاستغاثةَ بغير الله، وأنَّها قد تُلقي في قلبه: أنَّا نفعل بأصحابك بعد موتك ما كنا نفعل بهم في حياتك! فيظنُّ هذا مِنْ خطابٍ إلهي أُلقي إليه، فيأمر أصحابه بذلك، وذَكَرَ أشياءَ كثيرة مِنْ هذا الجنس وأعظم منه.

والمقصود أنَّ الإنسان إذا سمع بوقوع مثل ذلك لا يَستعبِد به ولا يغتر به، إذا عرف أنَّ مثل هذه الأمور تقع لعُبَّاد الأصنام والقبور، والأمر كله لله، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فصل

يتعيَّنُ على مَنْ نصحَ نفسه، وعلم أنه مسؤول عما قال وفعل، ومحاسبٌ على اعتقاده وقوله وفعله؛ أنْ يُعِدَّ لذلك جواباً، ويخلع ثوبَي الجهل والتعصب، ويُخلص القصد في طلب الحق، قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا}، وليعلم أنه لا يخلِّصُه إلا اتِّباع كتاب الله وسنة نبيه، قال الله تعالى: {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}، وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}.

ولـمَّا كان قد سبق في علم الله وقضائه أنه سيقع الاختلاف بين الأمة؛ أَمَرَهُم وأوجب عليهم عند التنازع الردَّ إلى كتابه وسنة نبيه، قال تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}، قال العلماء: "الردُّ إلى الله الردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى رسوله الردُّ إليه في حياته والردُّ إلى سنته بعد وفاته"، ودلَّت الآية: أنَّ مَنْ لم يَرُدَّ عند التنازع إلى كتاب الله وسنة نبيه فليس بمؤمن، لقوله تعالى: {إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فهذا شرط ينتفي المشروط بانتفائه.

ومُحال أنْ يأمر الله الناس بالرد إلى ما لا يفصِل النزاع، لا سيما في أصول الدِّين التي لا يجوز فيها التقليد عند عامة العلماء، وقال الله تعالى:

{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}.

ولَـمَّا أخبر النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) بوقوع الاختلاف الكثير بعده بين أمته؛ أمرَهم عند وجود الاختلاف بالتمسُّك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين مِنْ بعده، فقال (صلَّى الله عليه وسلَّم): «إنه مَنْ يعش منكم سيرى اختلافاً كثيرا، فَعَليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين مِنْ بعدي، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة»(١).

ولم يأمرنا الله ولا رسولُه بالرد –عند التنازع والاختلاف– إلى ما عليه أكثر الناس، ولم يقل الله ولا رسوله: لينظر أهلُ كل زمان إلى ما عليه أكثر أهل زمانهم؛ فيتبعونهم، ولا إلى أهل مصر معين أو إقليم، وإنما الواجب على الناس الرد إلى كتاب الله وسنة نبيه، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وما مضى عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، فيجب على الإنسان الالتفات إلى كتاب الله وسنة نبيه، وطريقة أصحابه والتابعين، وأئمة الإسلام، ولا يعبأ بكثرة المخالفين بعدهم.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم.

فإذا علم الله مِنَ العبد الصدقَ في طلب الحق، وتَرْكَ التعصب، ورَغِبَ إلى الله في سؤاله هداية الصراط المستقيم؛ فهو جدير بالتوفيق.

فإنَّ على الحق نوراً، لا سيما التوحيد الَّذي هو أصل الأصول، الَّذي دعت إليه الرسل مِنْ أولهم إلى آخرهم، وهو توحيد الألوهية، فإنَّ أدلته وبراهينه في القرآن ظاهرة، وعامة القرآن إنما هو في تقرير هذا الأصل العظيم.

ولا يستوحش الإنسان لقلة الموافقين وكثرة المخالفين؛ فإنَّ أهل الحق أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة، التي قد صار الإسلام فيها غريباً.

والحقُّ لا يُعرَف بالرجال؛ كما قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لمن قال له: أترانا نرى أنَّ الزبير وطلحة كانا مخطئينِ وأنت المصيب؟! فقال له علي: "ويحك يا فلان! إنَّ الحق لا يُعرف بالرجال، اعرفِ الحق تعرف أهله"، وأيضاً: فالحق ضالة المؤمن.

وليحذر العاقل مِنْ مشابهة الَّذين قال الله عنهم: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}، {أَهَؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا}.

وقد قال بعض السلف: ما ترك أحدٌ حقّاً إلا لِكِبْرٍ في نفسه؛ ومصداق ذلك قول النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم)، حين قال: «لا يدخل الجنة مَنْ في

قلبه مثقالُ ذرة مِنْ كِبْر»[1]، ثم فسَّر الكبر بأنه بطر الحق، أي: رده، وغَمْط الناس: وهو احتقارهم وازدراؤهم.

ولقد أحسن القائل:

وتعـرَّ مِـنْ ثوبينِ مَـنْ يلبسهما ... يلقى الـرَّدى بمذمَّةٍ وهـوانِ
ثوبٌ مِـنَ الجهل المركَّب فوقه ... ثوبُ التعـصُّب بئستِ الثَّوبانِ
وتحـلَّ بالإنصافِ أفخرِ حِليةٍ ... زِينتْ بها الأعطـافُ والكَتِفـانِ
واجعلْ شعاركَ خشيةَ الرَّحمنِ مع ... نُصحِ الرَّسولِ فحبذا الأمرانِ

وقال أيضاً (رحمه الله):

والجـهلُ داءٌ قـاتلٌ وشِـفاؤه ... أمـرانِ في التركيبِ متفقـانِ
نصٌ مِنَ القـرآنِ أو مِنْ سنةٍ ... وطبيبٌ ذاكَ العـالِمُ الـرَّباني

وقال ابنُ القيم: وما أحسنَ ما قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن المعروف بأبي شامة -في كتاب الحوادث والبدع-: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإنْ كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً؛ لأنَّ الحق هو الَّذي كانت عليه الجماعة الأولى، مِنْ عهد النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) وأصحابه، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

(١) رواه مسلم.

قال عمرو بن ميمون الأودي: صَحِبتُ معاذاً فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود، فسمعته يقول: "عليكم بالجماعة؛ فإنَّ يد الله على الجماعة"، ثم سمعته يوماً مِنَ الأيام وهو يقول: "سَيَلِي عليكم ولاةٌ يؤخِّرون الصلاة مِنْ مواقيتها، فصلُّوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة"، قال: قلت: يا أصحاب محمد! ما أدري ما تحدِّثون؟! قال: وما ذا؟ قلتُ: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول: صلِّ الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصلِّ الجماعة وهي لك نافلة! قال: يا عمرو بن ميمون، قد كنتُ أظنُّ أنك مِنْ أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ قلت: لا، قال: إنَّ جمهور الجماعة الَّذين فارقوا الجماعة! "الجماعةُ ما وافق الحق وإنْ كنت وحدك"، وفي طريق آخر: "فضرب على فخذي، وقال: ويحك! إنَّ جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإنَّ الجماعة ما وافق طاعة الله عزَّ وجل".

قال نُعيم بن حماد: "يعني إذا فسدتِ الجماعة، فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أنْ يفسدوا، وإنْ كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ"، ذكره البيهقي وغيرُه.

وروى مبارك بن فضالة عن الحسن البصري، قال: "لو أنَّ رجلاً أدرك السلف الأول، ثم بُعث اليوم ما عرف مِنَ الإسلام شيئاً"، قال: ووضع يده على خده ثم قال: "إلَّا هذه الصلاة"، ثم قال: "أمَا –والله–

لَـمَنْ عاش في هذه النكراء ولم يُدرك هذا السلف الصالح، فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته، ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه، فعصمه الله مِنْ ذلك، وجعل قلبه يحنُّ إلى ذلك السلف الصالح، يسأل عن سبيلهم، ويقتصُّ آثارَهم، ويتتبَّع سبيلهم، ليعوَّض أجراً عظيماً، فكذلك فكونوا إنْ شاء الله".

وروى محمد بن وضاح عن أبي الطفيل: أنَّ حذيفة بن اليمان أخذ حصاة بيضاء، فوضعها في كفه، ثم قال: إنَّ هذا الدِّين قد استضاء إضاءة هذه الحصاة، ثم أخذ كفَّاً مِنْ تراب، فجعلَ يذُرُّه على الحصاة حتى واراها، ثم قال: والَّذي نفسي بيده، ليجيئنَّ أقوامٌ يدفنون الدِّين هكذا، كما دَفنتُ هذه الحصاة، ولتسلُكُنَّ طريقَ الَّذين كانوا قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل.

قال محمد بن وضاح: الخير بعد الأنبياء ينقص، والشر يزيد.

قال ابن وضاح: إنما هلكت بنو إسرائيل، على يدي قُرَّائهم وفقهائهم.

وروى ابنُ وضاح عن عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن حبان بن أبي جبلة عن أبي الدرداء، قال: لو خرج رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم) عليكم اليوم، ما عرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابُه إلا الصلاة! قال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم! قال عيسى بن يونس: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان!

وروى ابنُ وضاح عن الأعمش قال: قال لي شقيق أبو وائل: يا سليمان! ما شبَّهتُ قرَّاء زمانك إلا بغنم رعت حمضا، فمن رآها ظنَّ أنها سمينة، وإذا ذبحها لم يجد فيها شاة سمينة.

وروى ابنُ وضاح عن أبي الدرداء، قال: لو أنَّ رجلاً تعلَّم الإسلام وأهمله، ثم تفقَّده، ما عرف منه شيئاً.

وروى ابنُ وضاح عن عبد الله بن المبارك، قال: اعلم -أي أخي- أنَّ الموت اليوم كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون! فإلى الله نشكو وحشتَنا، وذهابَ الإخوان، وقلةَ الأعوان، وظهور البدع، وإلى الله نشكو عظيم ما حلَّ بهذه الأمة: مِنْ ذهاب العلماء وأهل السنة، وظهور البدع. انتهى.

فكيف لو رأى مَنْ تقدَّم ذكرُهم هذه الأزمنة! التي ظهر فيها الشرك الأكبر والأصغر، والبدع التي لا تعد ولا تحصى، في الاعتقادات والأقوال والأعمال، وظهرت جميع الفواحش في أكثر أمصار المسلمين وضيِّعت الصلوات واتُّبعت الشهوات، وظهر مصداق قول حذيفة: ليجيئنَّ أقوامٌ يدفنون الدِّين كما دفنت هذه الحصاة.

وأبلغ مِنْ ذلك قولُ النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): «لتَتَّبعُنَّ سَنَن مَنْ كان قبلكم حذو القذة بالقذة، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فَمَن!»(١)، وقال: «لتَأخُذنَّ هذه الأمة مأخذ الأمم قبلها، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، قالوا: فارس والروم؟ قال: فمَنْ الناس إلا أولئك»(٢).

وظهر مصداق قولِ النَّبيِّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»(٣).

واعتبرْ هذا بما عابَ به سبحانه اليهود مِنْ تبديلهم رجمَ الثيب الزاني بالجلد والتحميم، فقال سبحانه في شأنهم: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ}، يقولون: إنْ أفتاكم محمد بالجلد والتحميم فاقبلوا، وإن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوا.

وقال سبحانه عنهم: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، وقال النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) -لما رجم الزاني-: «اللهم إني أولُ مَنْ أحيى أمرك إذ أماتوه»(٤).

فكيف حال الَّذين عطلوا الحدود بالكلية! ثم زاد الشر، إلى أنْ آلَ الأمرُ ببعض الولاة: أنهم يضربون على البغايا الخَراج! وتعدُّوا حدود الله

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في التفسير.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

في السارق بالصلب والقتل؛ صيانةً لأموالهم، ولم يعبؤوا بانتهاك حرمات مولاهم، فإنا لله وإليه راجعون.

ولْيجتهدِ المسلمُ في تحقيق العلم والإيمان، ولْيتخذِ اللهَ هادياً ونصيراً، وحاكماً ووليّاً، فإنه نعم المولى ونعم النصير، {وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}، وينبغي أنْ يُكثرَ الدعاء بما رواه مسلم وغيرُه، عن عائشة (رضي الله عنها): أنَّ النَّبيَّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) كان إذا قام يصلي مِن الليل يقول: «اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه مِنَ الحق بإذنك، إنك تهدي مَنْ تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أشرف المرسلين: سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

انتهى كلام الشيخ عبد الله أبا بطين

(رحمه الله وأسكنه فسيح جناته)

---

(١) رواه مسلم.

تم بحمد الله

مكتبة الهمّة

الدّولة الإسلاميّة

كتابٌ يهدي، وسيفٌ ينصر

مطابع الدّولة الإسلاميّة

صفر ١٤٣٧هـ

طُبع في مطابع الدَّولة الإسلاميَّة
ذو القعدة ١٤٣٦ هـ